المحامي الأستاذ منتصر الزيات -
الوسطية والتوازن السياسي

يسود اعتقاد مغلوط لدى البعض أن ترويج مضامين «الوسطية» يتم لصالح الحكومات، كما يفهم بعض المتشددين الوسطية على غير ما أراد الله سبحانه ونبيّه الكريم صلوات ربي وسلامه عليه فيتأبون عليها ظناً منهم أنها تباعد عن مواطن الجهاد ويصفون دعاتها بالدعة والضعف والخوَر، وقد خرّج العسكريُّ عن الأوزاعي أنه قال: (ما مِن أمرٍ أمَرَ اللهُ به إلا عارضَ الشيطان فيه بخصلتين لا يبالي أيهما أصابَ الغلو والتقصير)، فالوسطية هي التمسك بالإسلام على النحو الذي نهل منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح ((هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)) (الإسراء: ٩) فالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الوسطية كما في الحديث: «إنّهُ مِن يعش مِنكمْ فسيرى اختلافًا كثِيرًا فعليكُم بسنتي وسنّة الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّين عَضّوا عليها بالنواجِذِ وإيّاكم ومحدثاتِ الأمور فإنّ كلّ َبدعةٍ ضلالة».

لقد كان النص القرآني واضحاً في ترسيم خطوات الاعتدال من قلب وصايا الاستقامة وهو يقول للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم: ((فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) (هود: ١١٢) وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم خطاً مستقيماً على الأرض ورسم خطوطاً أخرى متعرجة وغير مستقيمة وتلا قول الله سبحانه: ((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)) (الأنعام: ١٥٣)، فالاستقامة وما تحتاج إليه من يقظة دائمة لعدم الخروج عن الطريق المستقيم قد تدفع إلى الغلو والتطرف والإفراط لهذا جاء التوجيه القرآني بعد الأمر بالاستقامة بعدم الطغيان، فشدة التعبد والرغبة في اتباع النبي دفعت البعض ممن عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم إلى اتّباع التشدد بالإعلان عن الزهد والتقشف فقال أحدهم إني لا أنكح النساء وقال آخر وأنا أصوم الدهر وقال ثالث وأنا أقوم الليل كله، فعلّم معلّم الناس الخير هؤلاء والبشرية من ورائهم أن هذا السلوك المتشدد ليس من التديّن الحقيقي وإنما هو من التدين المغشوش وأوضح أنه يصوم ويفطر ويقوم وينام وينكح النساء. فتمام العمل لقبوله يستلزم أن يكون خالصاً صواباً.. خالصاً لوجه لله سبحانه، صواباً على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا بدوره لن يتحقق إلا بالعلم.

الاعتدال لغة

قال في القاموس المحيط: (العدل: ضد الجور، وما قام في النفس أنه مستقيم)، و(عدل الحكم تعديلا: أقامه، و(عدل) فلانا: زكّاه، و(عدل) الميزان (سواه)، و(الاعتدال توسط حال بين حالين في كم أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدّلته وعدّلته)، والعدول: هم الخيار.

وذكر في القاموس المحيط: من معاني العدل والاعتدال: الحكم بالعدل، والاستقامة، والتقويم، والتسوية، والمماثلة، والموازنة، والتزكية، والمساواة، والإنصاف، والتوسط.

أما اصطلاحاً

فالاعتدال: هو التزام المنهج العدل الأقوم، والحق الذي هو وسط بين الغلو والتنطع من جهة، والتفريط والتقصير من جهة أخرى، فالاعتدال والاستقامة وسط بين طرفين هما: الإفراط والتفريط. والاعتدال هو: الاستقامة والتزكية، والتوسط والخيرية.

وكما ذهب الدكتور ناصر عبدالكريم العقل «الوسطية تأتي بمعنى: التوسط بين شيئين، وبمعنى العدل، والخيار، والأجود، والأفضل، وما بين الجيد والرديء، والمعتدل، وبمعنى الحسب والشرف».

أهم آفة أضرّت بالشباب في مناطق مختلفة من العالم العربي والإسلامي هي الجهل بمعنى عدم التعلم أو تلقى العلم من شيوخه حسب الأصول المعتمدة، وإنما اكتفى بعضنا بالنظر في الكتب والنصوص ومن ثم قاموا باستنباط الأحكام الشرعية دون أن يكونوا مؤهلين للقيام بهذه المهمة فكانت الأدلة على هوى القائمين على فكرة الخروج على أنظمة الحكم، بل كان البعض منا يضع النتائج مسبقاً ثم يبحث لها عن أدلة وفق مزاجه وتأويلاته التي استخلصها بمجرد النظر في النصوص.

وهنا أيضاً اسمحوا لي أن أشير إشارة عارضة إلى مسؤولية المؤسسات الدينية الرسمية والعلماء والدعاة في بعض الدول العربية، إذ لم ينهضوا بواجب الإشراف العلمي والفقهي على الشباب وتقاعسوا عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذا يفسر لنا أسباب دوامات العنف والتفجيرات التي قامت بها بعض الجماعات في مصر إبّان الثمانينات والتسعينات من القتال والخروج وقتل المدنيين والسياح الأجانب واستحلال أموال أهل الكتاب أو المصالح الحكومية. وأيضاً يمكن أن نشير إلى الأحداث والتفجيرات التي وقعت في أماكن مختلفة بمدينة الرياض حيث كانت النتائج تستخلص سلفاً عن تكفير الأنظمة والمتعاملين معها ومزاعم استهداف الأمريكان الذين يوجدون لأغراض قتالية أو تجسسية على زعمهم.. والتعرض لتجمعات سكنية بزعم وجودهم فيها، ثم استهداف مبنى الأمن العام الذي أودى بحياة سعوديين ومصريين حتى وصل الخلل إلى تخزين أسلحة ومفرقعات في مكة المكرمة وجدّة مما أحدث قلقاً كبيراً في قلوب المسلمين لولا أن الله أراد الأمن لبلاده وعباده هناك.

لقد اعترف إخواننا في مصر قادة الجماعات ببطلان أسانيدهم وتوفرت لديهم شجاعة الاعتراف والاعتذار عن الخطأ والندم، لكن مطلوب من الأجيال الجديدة الصاعدة ومن الحركات الإسلامية في كل مكان من بلادنا العربية أن يستفيدوا من التجارب وألا يبدأوا المشوار من بدايته. لا ينبغي النظر للوسطية على أنها ميوعة ومنجاة من كلفة النهوض بالدين وتكاليفه. إن الوسطية

الحقة أن تكون وسط الناس مرشداً ومعلماً، أن تصدع بالحق كاملاً وتتحمل كلفته. الكلمة القوية من أسمى درجات الجهاد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله» قال الله عز وجل: ((إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)) (الشورى: ٤٨) ، ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)) (المائدة: ٦٧)، ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)) (الأحزاب: ٤٥ - ٤٦).

ولقد كان الإمام علي بن أبى طالب رضي الله عنه ملتزماً بالنهج الوسطي الذي ورثه وتعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتنة الخوارج الذين رفعوا شعار «إن الحكم إلا لله» وقال عنهم هم إخواننا بغوا علينا، وأمر بقتالهم دفعاً لضررهم وبالقدر الذي يكفي لرد الاعتداء فإذا ما أوقفوا قتالهم أوقف قتاله. تلك معالم لاستراتيجية ضرورية تعمل على دفع غلواء التطرف والغلو والتكفير نحتاج إلى وضع بلورة واضحة لها فكرياً وشرعياً وسياسياً حتى نتمكن من لملمة كل الطاقات الممكنة في صفوف الأمة وهى تبحث عن موضع قدم لها بين الأمم الكبرى، وحتى نجنب بلادنا شرور الفرقة والتوتر والاستنزاف.

وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الوسطية بأنها العدل في تفسير ((وكذلكَ جعلناكُم أمةً وسطاً)) (البقرة: ١٤٣) في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، وفسرها ابن جرير الطبري (٣ / ٢٤٢) بمعنى التوسط بين الإفراط والتفريط. وفسرها ابن كثير بالخيار الأجود (١ / ٢٧٥)

ومن المفاهيم الرئيسة في التصور الوسطي للنهضة الجديدة أن الفكرة تسبق الفعل ويترتب على هذا بالضرورة حقيقة أن «أهل الذكر» و»الذين يعلمون» أجدر بمقعد القيادة من «أهل الحماس» وبالطبع فإن لكل منهما دوره وفضله، لكن اختلال العلاقة بين «الحماس» و»العلم» يؤدي إلى تبديد الجهود وأحياناً يؤدي إلى كوارث يحتاج إصلاح آثارها إلى الكثير جداً من الجهد، فالنيات الحسنة وحدها لا تضمن نجاح المسعى، بل يجب بذل أقصى الطاقة للأخذ بالأسباب الدنيوية حتى تطير النهضة بجناحين.

وإعادة التوازن للعلاقة بين الفكر والفعل تفتح الطريق أمام الأكثر كفاءة ليحتل موقعه الذي يستحقه وفي الوقت نفسه تفتح الباب أمام كل متميز لأن يطمح إلى أن يخدم دينه مطمئناً إلى أن عمله سيكون موضع تقدير حقيقي، لا أن تغيب الكفاءات تاركة ساحة العمل الإسلامي لعدد قليل من الأدعياء والمتحمسين المفتقرين للروية والطائشين المجردين من الخبرة فتكون الحصيلة هزيلة.

وتأتي في الأهمية تالياً مباشرة قضية إعادة تأسيس مفهوم النهضة على أساس يقيم وزناً أكبر لقضية «الإبداع» كميدان للجهاد لنصرة الإسلام بحيث تتحول الطاقات الفاعلة في الأمة من التفكير في مواجهة الآخر بشكل واحد ووحيد توسع أفق نظرته صوب إبداع فكر وثقافة وعلم

وتقنية وفن تدفع الآخر دفعا لأن ينظر للإسلام نظرة أكثر توقيراً إذ تنعكس عظمته في إنجازات أبنائه، فالإنجاز كمعيار للسعي لنيل رضا الله سبحانه وتعالى هو المعطى الذي يمكن أن يركز التيار الوسطي خطابه وعمله عليه، وهو ما يعبر عنه الداعية الإسلامي المعروف الشيخ يوسف القرضاوي بعبارة لطيفة يقول فيها: إن المسلمين يعرفون كيف يموتون في سبيل الله ومن المهم أن يتعلموا كيف يعيشون في سبيل الله.

فالتخلف عدو للأمة في المفهوم الوسطي وهو وفق هذا المنظور عدو لا يقل خطراً عن أعداء الخارج دولاً كانوا أو حركات ذات نفوذ دولي تستهدف الإسلام. فالخروج من شرنقة التخلف في الداخل يسبق الطموح لمنازلة أعداء الخارج. وهنا تصبح الأمة كلها قادرة على المشاركة في صنع النهضة والقيام بفريضة الجهاد كل حسب طاقته وفي المجال الذي يستطيع أن «يبدع» فيه. واتساع المفهوم يعني اتساع جبهة الجهاد وإتاحة الفرص لمختلف الطاقات التي يستبعدها المفهوم المتشدد للجهاد.

إعادة الاعتبار للإسلام في بلاد المسلمين

تلك مهمة تحتاج إلى «جهاد» كلمة وفكر أصعب بكثير من الجهاد بالمعنى العسكري الذي يحصر بعض المتشددين فهمه وعمله في حدوده، لن يكون للإسلام نصيب حقيقي من المهابة والاحترام في «الخارج» مالم تتمكن الفصائل التي ترفع لواء الوسطية من ترسخ مبدأ احترام الإسلام وإعادة الاعتبار لدوره في الحياة العامة وشرائعه ومنظومته القيمية في «الداخل»، وهذا لا يعني قصر المهمة على التيار الوسطي واستبعاد التيارات الأخرى من فصائل الحركة الإسلامية، بل يعني أن النجاح في هذه المهمة مرهون بعوامل عديدة في مقدمتها القدرة على إقامة توازن بين التقدير الواجب للإسلام كمرجعية، والفضاء الواسع الذي يعتقد هذا التيار أنه مقبول شرعاً تحت سقف الشريعة دون تغليب لموقف مذهبي أو اختيار في قضية خلافية.

وإعادة الاعتبار للإسلام في داخل العالم الإسلامي يفرض على من يتصدى له أن يبذل الجهد على جبهتين: فبعض الأنظمة الحاكمة وفي بنيتها تأثيرات واضحة من التراث السياسي والثقافي الأوروبي تجعلها تتخوف من الدور المجتمعي والثقافي والسياسي للإسلام وتفضل تطويعه لخدمة أغراضها السياسية أو تهميشه تهميشاً تاماً، الجبهة الثانية هي جبهة المثقفين المتغربين الذين ينظرون إلى الإسلام بمنظار «استشراقي» يتراوح بين الحياد البارد والعداء الساخن!

وغني عن البيان هنا أن التزايد والتشدد في التصور ينتج عنه تشدد في الفعل ما يؤهل التيار الوسطي لدور كبير في هذه المهمة حيث تستجيب الفطر الإنسانية دائماً لمنطق الرفق واللين والرحمة بأكثر مما تستجيب لداعي التزمت والتضييق.

بناء الأمة لا الانقلاب على السلطة

وتحت هذا السقف يتحرك تيار الاعتدال مستهدفاً في المقام الأول البناء الهادئ عملاً بحديث الرسول الكريم: «إن المُنبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظَهراً أبقى»، فالذي يبقى حقيقة هو بناء الأمة عبر تغيير ثقافي طويل المدى لا الانقلاب على السلطة بأمل تغيير العالم بعمل واحد سريع عنيف، فالذي يقاوم في العالم منذ مائتي سنة حملات الاقتلاع العنيفة التي يشنها الغرب علينا بضراوة، ليس النظم الحاكمة التي تخلى بعضها عن دوره في الدفاع عن هوية الأمة إما خوفاً من العدو أو انحيازاً له، وليس التيارات المتشددة التي اتخذت موقف القاضي الذي يصدر أحكام الإدانة والبراءة على المسلمين وقفاً لاختياراته الفقهية وانحيازاً لاتجاهاته المذهبية بل الوسطية التي عملت لقرون على الوقوف على ثغر الدفاع عن هوية الأمة ولم تقصر الجهاد على الدفاع عن حدودها.

وفي الختام نؤكد أن الحركة الإسلامية لا يجوز أن تتخندق وراء اختلافاتها، والتيار الوسطي بصفة خاصة يقدر لغيره من التيارات إيجابيات لا ينكرها إلا مجحف، لكنه يصدح بما يعتقد أنه الصواب في قضايا خلافية ويحاول أن ينبه إلى مخاطر الميل عن الصراط المستقيم إفراطاً أو تفريطاً فالتساهل والتشدد في تقديرنا وجهان لعملة واحدة.

والله أعلم.